«الأبونا» يوسف وزوجته وشموعهما (علي حشيشو)

شمع «الأبونا» يضيء العيد في شرق صيدا

آمال خليل

تحنو فاديا دندن برأسها على الشمعة. تقلّبها برفق بين كفيها كأنها تلاعب طفلاً. بعد جلوس لساعات، تمتلئ الطاولة أمامها بشموع ملوّنة مزيّنة بالورود وأقمشة الدانتيل. منذ ثلاثين عاماً، صارت الشموع جزءاً من أسرتها بعدما امتهن زوجها يوسف دندن حرفة صناعة الشمع. بلمسات الأنثى والأم، تنفخ فاديا الروح في الأشكال التي يصنعها زوجها.

لا تكتمل «الشعنينة» في شرقي صيدا إلا بشمع «الأبونا» يوسف. قبل العيد بأشهر، تحجز الكنائس والأخويات والمؤمنون حصصهم من شمع دندن الذي «يستحق دخول كتاب غينيس لأنه يضيء بشكل متواصل لستة أسابيع». ليست الميزة في أنه «شغل بيت» وليس تجارياً، بل في علاقته بالذاكرة الجماعية لمسيحيي شرقي صيدا الذين هُجّروا عام 1985 قبل أن يبدأ بعضهم بالعودة بعد سبع سنوات. «الأبونا» لم يختر طوعاً تصنيع الشمع. التهجير أجبره على ذلك. «كانت النية ألا تعتم الكنائس وأن يبقى مذبحها مضاءً ولو بنور شمعة، وألا يفقد القداس جزءاً من طقوسه».

بين عامي 1966 و1973، تعلّم الفتى يوسف، بالنظر، طريقة صنع الشمع اليدوي من رهبان دير المخلص في جون، حيث كان يدرس، لكنه انشغل عن هذه الحرفة بدراسة اللاهوت. عام 1986، خلال إقامته في كفرحونة (قضاء جزين) بعد تهجيره، فُقد الشمع في كنائس جزين، حيث كان يقيم القداديس، بسبب إقفال الطرقات. عمل على تجميع بقايا الشمع الذائب من الكنائس وإعادة طبخها وصبّها في قوالب. لاحقاً، بدأ يجتاز معبر باتر إلى الشوف لشراء ألواح الشمع الجاهز وإعادة صبّها في معمله الصغير في بيته في كفرحونة. خلال إعادة إعمار منزله المهدم في الصالحية، شيد معملاً في قبو البيت. على نحو تدريجي، طوّر مع زوجته تقنيات الحرفة. أشقاؤه في ألمانيا، وصلوه بسيدة متخصصة بصناعة أشكال متميزة، فسافر وتعلم على يديها طوال أسبوعين. مذاك، صار المعمل يعتمد على الآلات والتقنيات الحديثة، لكن الشمع حافظ على طابعه البلدي. من ألمانيا وإيطاليا، تعلم كيفية إدخال الصباغ على طبخة الشمع لتأخذ ألواناً مختلفة.

> صناعة الشمع وتزيينه جزء من صمودنا في الأرض بعد مرارة التهجير

شهرة شمع دندن وصلت إلى كندا من خلال ابنه غسان الذي كان يساعده في المعمل قبل أن يسافر. في أحد «الشعنينة»، في كندا، حمل غسان شمعة مزينة بطول مترين إلى القداس. لفتت النظر ووصلت أصداؤها إلى لجنة «غينيس» التي تفاوضه على إدخالها في الكتاب.

القصة لدى «الأبونا» دندن ليست شمعة تنير الظلمة وتذوب سريعاً. تمسكه بصناعة الشمع وتزيينه «جزء من صمودنا في الأرض بعدما ذقنا مرارة التهجير، ومحافظة على الطقس المرتبط بالأفراح والأعياد والنذورات والصلوات». زبائنه ليسوا من المسيحيين فحسب. كثر من أهالي صيدا والجوار يقصدونه لحجز طلبيات خاصة بالمولد النبوي أو بمناسبات خاصة كالولادات والأعراس.

جد المسيح في بلدة القليلة

في اللوحة التي تشير إلى اتجاه بلدة القليلة (قضاء صور)، خُطّ اسم البلدة إلى جانب «مقام النبي عمران». تتباهى القليلة بأنها، استناداً إلى الروايات التاريخية، تحتضن مقام والد السيدة مريم. في حي «يواكيم»، في البلدة، غرفة كبيرة فوقها قبة خضراء، يقابلها صليب خشبي رُفع في الباحة الخارجية. تحتضن الغرفة مقاماً تقول الروايات إن النبي عمران مدفون داخله. ثرى والد السيدة مريم يجذب الزوار من المسلمين والمسيحيين، لا سيما في عيدي سيدة البشارة والفصح. على الجدران، وفي الزوايا، تختلط العقائد الدينية: شعارات وأدعية وأيقونات وفوانيس وشموع وسبحات تزدحم حول الضريح المبني الذي غُطي بقماشة خضراء.

في السنوات الأخيرة، اعتادت جمعيات مسيحية تنظيم مسيرات تحت شعار «على خطى السيدة مريم العذراء» من قانا إلى القليلة مروراً بصور. وبحسب مدير المواقع الأثرية في قضاء صور علي بدوي، «يعود بناء المقام إلى الفترة ما قبل الصليبية. وفي الاتفاقية على تقاسم الأراضي بين سلطان المماليك قلاوون ومارغريتا حاكمة صور، في العهد الصليبي، ذكر المقام الذي كان يعرف حينها بدير عمران».

مقام النبي عمران في القليلة (علي حشيشو)

وكانت المديرية العامة للآثار أجرت سنة 1996 أعمال تنقيب في العقار المجاور للمقام أظهرت في طبقات مختلفة آثار معبد روماني مكرس على اسم سابينا، زوجة الإمبراطور الروماني ادريانوس. كما وجدت آثاراً لكنيستين، الأولى بُنيت في العهد البيزنطي، والثانية في العهد الصليبي. ولأهمية المكتشفات، استملكت المديرية العقار وغطّت المكتشفات في انتظار توافر تمويل لتأهيل الموقع وتكريسه موقعاً سياحياً دينياً.

آمال...

درب الآلام يمرّ في القريّة

ظهر الجمعة المقبل، يمثل السيد المسيح أمام محكمة القريّة (قضاء صيدا) في باحة كنيسة مار جرجس. يستجوبه رئيس الكهنة قيافا في دعوى ثورته ضد الحكم الروماني، بحضور الأقباط وحراس الهيكل ويهوذا الأسخريوطي، ويوعز باقتياده مكبّلاً ليمثل أمام الحاكم الروماني بيلاطس البنطي الذي يسلّمه ليُصلَب. على وقع تلاوة الإنجيل، يُقتاد المسيح مكبلاً، وإكليل الشوك على رأسه، على درب الجلجلة. حشود المتفرجين تشارك في جلده وهو يجرّ جسده حاملاً صليبه الخشبي الذي سيعلق عليه. عند تلة مزار سيدة الحنان، توثق يداه ورجلاه بحبل ويربط على الصليب الذي يثبت مرتفعاً. والدته مريم العذراء وتلامذته يركعون تحت الصليب ويرثونه بدموعهم وصلواتهم. بعد صلبه، ينقل في زيّاح إلى كنيسة سيدة الحنان حيث تتم رتبة دفن المسيح ويدفن عند الثالثة عصراً.

تلك فصول من مسرحية ستؤدى يوم الجمعة العظيمة في البلدة، في مراسم اعتادت أخوية القريّة المريمية على تنظيمها سنوياً لمناسبة أسبوع الآلام وعيد الفصح منذ أكثر من 20 عاماً. تجهش حنة عيد كلما شاهدت المسرحية، رغم أنها حفظت السيناريو والحوار. "تشعر

من مسرحية الصلب (حسن بحسون)

كأن المسيح مات مجدداً" تقول عيد. تحرص وأخريات على أن يشاهد الأطفال المسرحية "ليدخلوا في الأجواء. كيف عاش المسيح وتألم وصلب لأجلنا، ما يساهم في تمسكهم بالطقوس الدينية".

بحسب مسؤول الأخوية جوزيف مخول، "يتزاحم الشبان على أداء دور المسيح كأن البركة ستحلّ عليهم". هذا العام، كان هناك خمسة مرشحين، اختير واحد منهم وفقاً لقدرته على تحمّل المشقة وأدائه التمثيلي. شبّان الأخوية، يكتبون نص المسرحية ويتدرّبون على التمثيل ويخرجونه ويشترون الثياب والأدوات اللازمة. إنها "تمثيلية"، يؤكد مخول، فمؤدي دور المسيح يطلى جسده بالصباغ الأحمر والسيوف بلاستيكية. أما في الصلب، فلا تُدقّ المسامير في أيدي الممثل. يرفض مخول بثّ العنف في المسرحية التي يشاهدها الأطفال. "فالمسيح لا يقبل بأن نعذّب أجسادنا".

المسرحية جزء من سلسلة أنشطة تبدأ بسبت أليعازر الذي يسبق أحد الشعانين. فتيان من أبناء الأخوية يجولون على البيوت، مجسّدين دور تلامذة المسيح. في خميس الغسل الذي يسبق الجمعة العظيمة، يغسل الفتيان أو فرسان الأخوية أقدام المصلين المشاركين في القداس ثم يؤدون تمثيلية بستان الزيتون. عشية الجمعة العظيمة، تنطلق مسيرة شموع ليلية من القريّة نحو عين الدلب والمية ومية.

آمال...